الرسالة

(١ كورنثوس ٤: ٩-١٦)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ قد أبرَزنا نحنُ الرسلَ آخِري الناس كأنَّنا مجعولونَ للموت. لأنَّا قد صِرنا مشهداً للعالمِ والملائكةِ والبشر* نحنُ جهَّالٌ من أجلِ المسيحِ أمَّا أنتم فحكماءُ في المسيح. نحنُ ضُعفاءُ وأنتم أقوياءُ. أنتم مُكرَّمون ونحن مُهانون* وإلى هذه الساعة نحنُ نجوعُ ونعطَشُ ونَعْرى ونُلطَمُ ولا قرارَ لنا* ونتعَبُ عاملين. نُشتَمُ فنبارك. نُضطَهَدُ فنحتمِل* يُشنَّعُ علينا فنتضرَّع. قد صِرنا كأقذارِ العالمِ وكأوساخٍ يستخبثها الجميعُ إلى الآن* ولستُ لأُخجِلَكم أكتبُ هذا وإنَّما أعِظُكم كأولادي الأحبَّاءِ* لأنَّه ولو كانَ لكم ربوةٌ مِنَ المُرشدينَ في المسيحِ ليس لكم آباءٌ كثيرون* لأنّي أنا ولَدتكم في المسيحِ يسوعَ بالإنجيل* فأطلب إليكم أن تكونوا مقتدينَ بي.

رقاد والدة الإله

تعيّد كنيستنا المقدسة في ١٥ آب لرقاد سيدتنا والدة الإله الدائمة البتولية مريم، التي حملت في أحشائها الطاهرة إله الكل ومخلّص العالم. تّشكل الأعياد الوالديَّة (المخصَّصة لوالدة الإله) المحور الأساسي للسنة الطقسيَّة. تُستهَّل هذه السنة بعيد ميلاد والدة الإله في ٨ أيلول وتُختتم بعيد رقادها في ١٥ آب. ذلك لأن الكنيسة وعت أنَّ ميلاد السيدة هو بداية تحقيق وعود الله وخلاص الجنس البشري، ورقادها هو تذوّق مسبق لما ستكون عليه الخليقة في اليوم الأخير، تذوّق مسبق للمجد الذي سيكون فيه المؤمنون إن بَقَوا أمناء للرب.

لا يذكر الكتاب المقدس شيئاً عن رقاد والدة الإله، لكن التقليد تحدَّث عن موتها وانتقالها بالجسد إلى السماء بعد ثلاثة أيام من موتها لتكون إلى جانب ابنها في ملكوته السماوي. يذكر القديس يوحنا الدمشقي في عظته الثانية حول رقاد العذراء «لقد تسلّمنا من تقليد قديم وحقيقيّ جداً أنَّه في وقت رقادها المجيد، كل الرسل القدّيسين الذين كانوا يجوبون الأرض من أجل خلاص الأمم قد جُمعوا بلحظة إلى أورشليم عن طريق الفضاء. وعندما صاروا بالقرب منها، تراءى لهم ملائكة وسُمع ترتيل القوّات العلويّة. وهكذا، في مجد إلهي وسماوي، استودعت العذراء نفسها المقدسة بين يدي الله بحال لا توصف. أما جسدها فقد نُقل ودُفن وسط ترانيم الملائكة والرسل، ثم وضع في جثسماني حيث استمر ترنيم الجوقات الملائكيَّة بلا انقطاع مدّة ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث توقّفت هذه الترانيم، ففتح الرسل الحاضرون التابوت بطلب من توما الرسول الذي كان وحده بعيداً عنهم... لكنَّهم لم يستطيعوا قط العثور على جسدها الجدير بكل مديح، ولم يجدوا سوى ثيابها المأتميَّة مودَعة هناك والتي كان يتسرَّب منها طيب لا يوصف».

العدد ٢٠١٥/٣٢

الأحد ٩ آب

تذكار الرسول متيّاس

اللحن الأول

إنجيل السَحَر العاشر

ينعكس هذا التقليد جلياً في ليتورجيا وأيقونة العيد. ففي سحر العيد نرتل: «يا عروس الله الأم البتول، يا من ولدت الحياة، لقد انتقلت برقادك الموقر إلى الحياة الخالدة، محفوفةً بالملائكة والرئاسات والرسل والأنبياء وسائر الخليقة، وأما نفسك البريئة من العيب، فتقبَّلها ابنُك في يديه الطاهرتين». وفي إحدى ترانيم صلاة المساء التي نرتلها في صلاة الغروب نصِفُ كيف حضر الرسل من

أقطار العالم واجتمع الملائكة مع سيّدهم ليشيّعوا الجسم القابل الإله هاتفين نحو رؤساء المراتب العلويَّة «هوذا ملكة الكل الفتاة الإلهيَّة قد أقبلت» إذ بها صار الخلاص للجنس البشري، طالبين منها، أن تتشفَّع لنا أمام ابنها كي ينجينا من «كل صدمة مضّادة» معظّمين إياها مدى الدهور.

في أيقونة العيد، نجد العذراء مريم منطرحة على فراش الموت، وعلى وجهها السلام والهدوء وكأنها نائمة. يداها موضوعتان بشكل صليب، وهي ترتدي ثوباً بنياً (دلالة على الطبيعة البشرية الفانية) ورداء مذهّباً (دلالة على الطبيعة الإلهية). أمّا الرب يسوع فنراه منتصباً في وسط الأيقونة، جسده محاط بهالة بهيّة من النور الأزلي، يحمل العذراء مريم في يديه ملفوفة بلفائف كطفل صغير وكأنها تولد في السماء على يدي ولدها وسيّدها. إذا نظرنا إلى الأيقونة من بعيد، يتراءى لنا كيف أن مريم (أفقياً) ويسوع (عمودياً) يؤلفان معاً صليب السيد: فالصليب منتصب أبدًا في حياة الكنيسة. أما الرسل فيحيطون بجسد مريم بشكل نصف دائري. نلمح بوضوح أربعة منهم: بطرس منحنٍ فوق رأس مريم وعلامات الحزن والتأمّل ظاهرة على وجهه، اندراوس خلفه، بولس يقف عند قدميها منذهلاً، ويوحنا التلميذ الحبيب يقبّل نعشها بحزن عميق. نرى أيضاً الملائكة يشاركون بفرح بهذا المشهد فيضفون عليه علامات السموات.

يتجاوز عيد رقاد والدة الاله بالجسد وانتقال نفسها الى السموات معنى الرقاد الجسدي ليأخذ معنًى روحيًّا أعمق. ففي رقاد العذراء نفهم أن الموت قد أبيد، وأصبح مدخلاً نحو حياة أوسع: «الموت صار عربونًا للحياة». من ناحية أخرى العيد ليس فقط احتفالاً بولادة مريم في السماء بل عيد انتقال مريم بالجسد الى السماء وهذا ما تشير إليه طروبارية العيد «لأنك انتقلتِ الى الحياة بما أنك أم الحياة». جسد مريم الكليّ الطهر لم يعرف الفساد الناتج عن الموت، بل نُقل الى السماء. العذراء مريم المنفردة في النقاوة والطهارة، قد تجاوزت حدود الطبيعة وطارت الى أقرب حدّ يستطيع أن يصل اليه انسان، فتعالت على الملائكة وتألّهت بتواضعها. لذلك مجّدها ابنها بجسدها ونقله اليه. هكذا تحتفل الكنيسة بانتقال العذراء مريم على انه أوّل قيامة قبل القيامة العامّة. العيد هو عيد كل الطبيعة الإنسانية لأن العذراء مريم أوصلت الجبلة الترابية النتنة الى هدفها الأسمى وسمح الله لها بالرجاء. رقاد العذراء يمثّل لنا المجد الذي يمكن أن نصير اليه ، إذا ما أثمرت النعمة فينا بفعل الروح القدس.

لذلك نرنّم في رقادها «إنَّ جماهير الملائكة في السماء ونحن جنس البشر على الأرض نغبّط رقادك الكليّ الإكرام، لأنَّك حصلتِ أماً لباريءِ الكل المسيح الإله، فإليك نضرع ألّا تزالي مبتهلة إليه من أجلنا، نحن الواضعين رجاءنا عليكِ بعد الله، يا والدة الإله الكلية التسبيح، التي لم تعرف زواجاً» (من أبوستيخن صلاة الغروب).

القديس مكسيموس المعترف

في ١٣ آب تقيم الكنيسة المقدسة تذكار نقل رفات القديس مكسيموس المُعتَرف، الأب الممتلئ من الله واللاهوتي العلاّمة والمدافع الذي لا ينثني عن الإيمان المستقيم (راجع سيرته مفصلة في السنكسار، ٢١ كانون الثاني). ترك القديس مكسيموس للكنيسة إرثاً أدبياً بالغ العُمق والوفرة والغنى. فقد كتب كثيراً في اللاهوت العقائدي تفسيراً

الإنجيل

(متى ١٧: ١٤–٢٣)

في ذلك الزمانِ دنا إلى يسوعَ إنسانٌ فجثا له وقال يا ربُّ ارحمِ ابني فإنَّهُ يُعذَّبُ في رؤوسِ الأهِلَّةِ ويتألَّم شديداً لأنَّه يقعُ كثيراً في النار وكثيراً في الماء* وقد قدَّمْتُهُ لتلاميذك فلم يستطيعوا أنْ يَشْفوهُ* فأجاب يسوع وقال: أيُّها الجيلُ الغيُر المؤمنِ الأعوجُ إلى متى أكونُ معكم. حتى متى أحتمِلُكم. هلمَّ به إليَّ إلى ههنا* وانتهرهُ يسوعُ فخرجَ منهُ الشيطانُ وشُفي الغلامُ من تلكَ الساعة* حينئذٍ دنا التلاميذُ إلى يسوعَ على انفرادٍ وقالوا لماذا لم نستطِعْ نحن أنْ نُخرِجَهُ* فقال لهم يسوع لِعدمِ إيمانِكم. فإنّي الحقَّ أقولُ لكم: لو كانَ لكم إيمانٌ مثلَ حبَّةِ الخردلِ لكنتم تقولون لهذا الجبلِ انتقِلْ من ههنا إلى هناك فينتقِلُ ولا يتعذَّرُ عليكم شيءٌ* وهذا الجِنس لا يخرجُ إلاَّ بالصلاة والصوم* وإذ كانوا يتردَّدون في الجليل قال لهم يسوع إنَّ ابنَ البشر مزمعٌ أن يُسلَّمَ إلى أيدي الناس* فيقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم.

تأمل

«لو كان لكم إيمانٌ مثلَ حبَّةِ الخردل لكنتم تقولونَ لهذا الجبلِ انتقِلْ من ههنا إلى هناك فينتقل ولا يتعذَّرُ عليكم شيءٌ».

ألك الإيمان كلّه؟ أثبت لنا ذلك. أرنا المعجزات والآيات. أقم الموتى بصلاتك. إفتح أعين العميان. أخرج الشياطين. طهّر البرص. إشفِ المقعَدين. إمشِ على الماء كما تمشي على اليابسة. حوّل الماء إلى خمر. أشبع بصلواتك جموعاً كثيرة من خمسة أرغفة وسمكتين، لأن القائل صادق هو: «الحق الحق أقول لكم: إن مَن يؤمن بي يعمل الأعمال التي أعملها أنا ويعمل أعظم منها» (يو ١٤: ١٢). ولكن قد يعترض معترض قائلاً. إذا لم يعمل أحد تلك الأعمال والأفعال اللائقة بالله أفما له من رجاء خلاص؟ طبعاً لنا رجاء خلاص، إن لم نفعل تلك الأعمال، وذلك ان اعترفنا بضعفنا وقلة إيماننا. فإن الضعيف إنما يلتمس رحمة لا تعظماً. فإن كنا إلى الرحمة محتاجين وإياها نطلب فنحن بحاجة إلى التواضع، لكي نجذب به إلينا رأفات الله. فإنه قد ودفاعاً، وله تفاسير عميقة في الكتاب المقدس. للقديس مكسيموس أيضاً شروحات حول كتابات آباء كبار مثل ديونيسيوس الآريوباجي وغريغوريوس اللاهوتي، وله أيضاً كتابات عديدة في الحياة الروحية والنسكيات، وفي الأسرار المقدسة. يستحيل علينا الخوض هنا في لاهوت القديس مكسيموس وإرثه الأدبي الوافر، لكننا سنحاول الإضاءة على واحد من مؤلفاته هو «حياة العذراء»، في موسم عيد رقاد الكلية القداسة والدة الإله الذي نحن فيه.

في أبحاثه حول حياة الكلية القداسة والدة الإله، إنطلق القديس مكسيموس من فَرَضية لامست عنده اليقين مفادها أنه لم يكن للعذراء القديسة أن تحتل هذه المكانة السامية في وجدان الكنيسة لو لم يكن لها، في مراحل حياة إبنها الإله لا سيما بشارته وآلامه وقيامته، حضورٌ أكبر مما تنقله إلينا الأناجيل الشريفة، كون رسالة الأناجيل هي حصراً نشرِ بُشرى الخلاص. هكذا إنطلق إذاً القديس مكسيموس في بحثه عن جوانب هذا الحضور وتفاصيله، ببالغ الدقة والحرص والتمييز، كتابياً وعقائدياً، جامعاً مواده من نصوص كتابية قانونية وأخرى من الأدب المنحول، وغيرها من مصادر ما عادت معروفة لدينا. لا سيما فيً ما يختص بآلام ربنا يسوع المسيح وبرقاد العذراء القديسة وارتفاعها بالجسد إلى السماء. أما عن استناده إلى نصوص من الأدب المنحول وغيره، إلى جانب النصوص القانونية، فيشدد القديس مكسيموس على أنه اتبع مثال آباء سابقين كبار مثل غريغوريوس النيصصي، غريغوريوس اللاهوتي وأثناسيوس الإسكندري.

تظهر الكلية القداسة، في كتاب «حياة العذراء» للقديس مكسيموس، كرفيقة درب إبنها الإله لا من خلال أمومتها وحسب بل في مسيرته البشارية أيضاً، وقائدة الجماعة الكنسية الناشئة منذ العنصرة، والمصدر الأساس للعديد من التفاصيل الإنجيلية حول حياة يسوع.

في افتتاحية «حياة مريم» يدعو القديس مكسيموس «شعوب الأمم كلها» أن يسمعوه ويشاركوه في «إكرام الطاهرة والفائقة البركات والدة الإله، الدائمة البتولية مريم»، والأسلوب الإنشائي الغالب على مدى الكتاب يستعير كثيراً من نشائد وتسابيح القديس رومانوس المرنم (١ تشرين الأول). لم يعمل القديس مكسيموس، في «حياة العذراء»، على إخفاء مشاعره التقوية تجاه الكلية القداسة والدة الإله دون أن ينزلق الكتاب إلى المبالغات العاطفية التي لا شأن لها بالتُقى الحقيقي بل وقد تنحرف عن العقائد الإيمانية المستقيمة. بهذا الجمع بين الحرص الدقيق للاهوتي المُعلّم والتقوى العميقة للمؤمن القديس، يُشعِرُنا القديس مكسيموس كأن والدة الإله نفسها كانت حاضرة معه وهو يؤلّف سيرة حياتها.

يبدأ «حياة العذراء» برواية ميلاد مريم وطفولتها، وصولاً إلى بشارتها بالحبل الإلهي. هنا يتوسع القديس مكسيموس في تفسير كلام رئيس الملائكة جبرائيل للبتول القديسة مُبَيّناً أن بتولية مريم بالجسد والروح، جعلت منها لا محلًا لتجسد ابن الله وحسب بل ومعبراً إلى تحرّر حواء، والمرأة عموماً، من اللعنة الأولى. يبقى الشرط البديهي لتحقق هذا التحرّر على المستوى الفردي، الاقتداء بمريم التي اختارت طوعاً أن لا يكون فيها شهوة إلا لما لله. في ما يلي من الكتاب يشدد القديس مكسيموس على أن العذراء القديسة، وإن كانت منذ البدء عالمة أن ابنها هو الرب الإله، لم تتأثر أمومتها تجاهه البتة. لا لجهة عطف الأم

وحنانها وإخلاء ذاتها كلياً من أجله وحسب بل وكالسند الداعم له أيضاً. ويروي القديس مكسيموس كيف أن العذراء القديسة كانت تفرح بابنها إلى حد أنه لما فرغت الخمر في عُرس قانا الجليل، «كانت شهوة قلبها» أن تراه يتمم المعجزة فيُظهر مجده الإلهي للكل. أما ابنها الإله فأطاعها وأتم لها ما أرادت بالرغم من أن ساعته لم تكن أتت بعد. منذ ذلك اليوم، صارت ملازمة له ترافقه وتحفظ كلامه في قلبها طيلة حياته على الأرض. ويضيف القديس مكسيموس أن العذراء القديسة، بملازمتها يسوع على هذا الشكل، صارت قدوة لنساء أخريات أردن التمثل بها وصرن لها تلميذات. لكنها ما أرادت حصرهنّ بها بل كانت الوسيطة والمُرشِدة لهن إلى ابنها الإله. أبرز هؤلاء النسوة، بحسب القديس مكسيموس، وأقربها رفقة للعذراء القديسة كانت مريم المجدلية. لعل هذا ما أعطى هذه الأخيرة، دائماً بحسب القديس مكسيكوس، هذا الزخم والغَيرة اللذين تحلّت بهما، حتى الشهادة، في نشر بشارة يسوع. يصفها بإكرام فيقول: «كما كان بطرس بين الرجال، هكذا كانت المجدلية بين النساء».

واحد من الموضوعات الأكثر شداً للانتباه، في «حياة العذراء»، هو حضور مريم المحوري طيلة مراحل آلام ابنها الإله، منذ العشاء السري. فعلى ما يؤكده القديس مكسيموس، كانت مريم المصدر الأساس لمعظم التفاصيل الإنجيلية عن أيام ابنها الأخيرة. فهي الشخص الوحيد الذي لازمه بلا انقطاع من لحظة الإعتقال حتى القيامة. وعندما منعها الحراس من حضور مثول يسوع أمام حنان وقيافة، يقول القديس مكسيموس، كانت مريم تستوقف الخارجين والداخلين لتجمع منهم تفاصيل المحاكمة.

مشهد حُزن مريم في الكتاب، طيلة خضوع يسوع للمحاكمات وللتعذيب فيما بعد، بالغ العمق والتأثير. لكنه ليس حزناً مُحبَطاً إذ نراها تتجاوز رهبة الحشود والخوف من الحراس فترافق ابنها حتى أقدام الصليب. مرة أخرى يؤكد القديس مكسيموس على أن العذراء هي التي نقلت معظم الأقوال والأحداث والتفاصيل، التي سبقت وتلت موت يسوع، إلى الرسل وسائر التلاميذ. «بهذا، يا والدة الرب القديسة، جاز السيف في قلبك كما سبق فتنبأ لك سمعان»، يقول القديس مكسيموس مُخاطباً العذراء القديسة. في ما يتبع من كتابه يروي القديس مكسيموس أن العذراء القديسة لازمت ابنها حتى القبر، حيث بقيت وحدها هناك لتبكي كما كانت عادة أقرباء الميت آنذاك مما يجعلها، كما يقول القديس مكسيموس، الشاهد الأول على القيامة. أما لماذا لم يُذكَر هذا في الأناجيل الشريفة فيقول القديس مكسيموس أنه لكي لا يشكك أحد بخبر قيامة السيد إذا بشرت به أمه، مُستغلًا عاطفة الأم ليشكك بمصداقيتها.

في «حياة العذراء» أن الكلية القداسة بقيت، بعد صعود الرب وحلول الروح القدس يوم العنصرة، تشدد عزيمة الرسل وتحضن التلاميذ الجدد وتقوّي إيمان المتزعزعين، حاملة إبنها الإله في قلبها وأقوالها وأفعالها. وعندما قاربت الثمانين من العمر أتى إليها رئيس الملائكة جبرائيل، كما يوم البشارة، وأنبأها بقُرب رقادها. وكما في يوم البشارة، أجابته القديسة العذراء قائلة «ليكن لي بحسب قولك».

كُتب: «الذي في مذلّتنا ذكرنا ونجانا من أعدائنا» (مز ١٣٦: ٢٣–٢٤). «واتضعت فخلّصني» (مز ١١٤: ٦).

لا نترك في النفس المتواضعة أثراً للأشياء التي يمقتها الله، لأنه في النفس المتواضعة يسكن الآب والإبن والروح القدس. فإنه كُتب: «أية شركة بين البِرّ والاثم؟ وأية مخالطة للنور مع الظلمة؟! وأي ائتلاف للمسيح مع بليعال؟ وأي حظ للمؤمن مع الكافر؟ إنكم هيكل الله الحيّ كما قال الله: «اني أسكن فيهم وأسير فيما بينهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً.

فلنهرب إذاً من الكبرياء بما أن الرب يبغضها، ولنأتِ إلى تواضع الذهن الذي به أرضى جمهورُ الصِدّيقين الرب. فإن تواضع الذهن قربانٌ عظيم، وشرفٌ كبير، ونجاح باهر، وكرامة عظيمة للذين اقتنوه. فالتكبّر بالفكر حطّ قدر ذلك الفريسي، أمّا العشار فارتفع بتواضع ذهنه. ومعه فليؤهلنا الرب للحظ الذي لا يفنى.

القديس أفرام السرياني